تجليات الشباب والشيب في شعر دعبل الخزاعي (ت٢٣٥هـ)

م.د. حفصت نجم مولود

معهد الكومبيوتر / وزارة التربية – أربيل/ العراق

البريد الإلكتروني Email : afsn77@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الشباب، الشيب، دعبل الخزاعي، الشاعر، الزمن

كيفية اقتباس البحث

مولود، حفصت نجم ، تجليات الشباب والشيب في شعر دعبل الخزاعي (ت٢٣٥هـ)،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، أيلول ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:٩ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Manifestations of Youth and Old Age in the Poetry of Di‘bil al-Khuza‘i (d. 235 AH)

Ph.D. Hafssat Najm Mawlood
Computer Institute / Ministry of Education - Erbil / Iraq

Keywords : youth, old age, Di'bil Al-Khuza'i, poet, time.

How To Cite This Article
Mawlood , Hafssat Najm, Manifestations of Youth and Old Age in the Poetry of Di‘bil al-Khuza‘i (d. 235 AH),Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, September 2026,Volume:16,Issue 9.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstracter:

Poets, both ancient and modern, have mentioned the concepts of youth and old age in their poetry because they represent two opposing poles in their lives. Their view of them is influenced by their personal experiences and their feelings about the rapid passage of time.

Poets in the Abbasid era dealt with these two concepts in their poems. Di’bal Al-Khuza’i was one of the poets who used these two concepts in his poetry, especially the word “grey hair,” which had a prominent appearance in it. When he spoke about them, he was preaching or mourning youth and regretting it, because of its effect on his soul. Sometimes he considered gray hair to be dignity, reason, and prestige, and sometimes he sees it as a calamity of calamities, with what it carries of weakness and helplessness, which makes the young women turn away from it. As for youth, he sees in it strength, vitality, work, and freshness, and he may see in it recklessness and madness. The poet lived a long life, so he expressed his anxiety and suffering in gray hair, with its great effect on him. He mentioned gray hair and the effects of weakness, wrinkles, and old age it leaves on the person, whether in the outward appearance of white hair or what he feels inside of physical or mental weakness.

In this research, we shed light on youth and gray hair in the poetry of Di'bal al-Khuza'i, as they constitute an important aspect related to the poet's emotions, feelings, and philosophy of life. The transformations in his life, his regret for the return of youth, his justifications for gray hair, and its effect on his poetry. We mentioned the concept of youth and gray hair, and after that a brief summary of the poet's life. We divided the research into two sections. In the first section, we studied the manifestations of youth, and the poet's description of his feelings and emotions towards it. and its effects on his heart and mind. The second section discusses the manifestations of gray hair, expressing his various feelings and emotions toward it, with a conclusion that included the most important findings of the research.

الخلاصة:

ذكر الشعراء مفهومي الشباب والشيب في شعرهم قديماً وحديثاً، لأنَّهما كانا يمثلان قطبين متقابلين في حياتهم، فرؤيتهم لهما تتأثر بتجاربهم الشخصية، ومشاعرهم تجاه مرور السريع الزمن.

تناول الشعراء في العصر العباسي هذين المفهومين في قصائدهم، فكان دعبل الخزاعي من الشعراء الذين استعمل هذين المفهومين في شعره، ولا سيما لفظ الشيب الذي كان له ظهور بارز فيه، فكان في حديثه عنهما واعظِاً أو راثِياً الشبابَ ومتحسِّراً عليه، لما له من أثر على نفسه، فمرة يعد الشيب الوقار والعقل والهيبة، ومرة يراه مصيبة المصائب بما يحمله من ضعف وقلة الحيلة مما يجعل الغواني يصددن عنه، أمَّا فيما يتعلق بالشباب فيرى فيه القوة والحيوية والعمل، والنضارة، وقد يرى فيه الطيش والجنون، عَمَرَ الشاعر طويلاً، فعبر عن قلقه ومعاناته في الشيب بما له من أثر كبير عليه، فذكر الشيب وما تركه فيه من آثار الضعف والتجاعيد والشيخوخة، سواء أكان في المظهر الخارجي من بياض الشعر أو ما شعر به من الداخل من ضعف جسدي أو ذهني.

في هذا البحث سلطنا الضوء على الشباب والشيب في شعر دعبل الخزاعي، لأنَّه يشكِّل جانباً مهما من الجوانب المرتبطة بوجدان الشاعر وأحاسيسه، وفلسفته في الحياة، والتحولات في حياته، وتحسره لعودة الشباب، وتبريراته للمشيب، وأثره في شعره، ذكرنا مفهوم الشباب والشيب، وبعد ذلك نبذة مختصرة عن حياة الشاعر، فقد قسمنا البحثَ على محورين، درسنا في المحور الأول تجليات الشباب، ووصف الشاعر لمشاعره وأحاسيسه نحوه، وآثاره على قلبه وعقله، أما في المحور الثاني فقد ذُكِرَ فيه تجليات الشيب، ففيه عبر عن مشاعره وأحاسيسه المختلفة تجاهه، مع خاتمة ضمتْ أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المقدمة:

كان التفكير برحيل الشباب ومجيء الشيب قد شغل الكثير من الشعراء، فكان انعكاساً لتجاربهم في الحياة، وإحساسهم بوطأة الزمن وثقله عليهم، فترجموا كل هذه المشاعر والأحاسيس المكبوتة إلى كلمات، إذ كتبوها بأقلامهم معبرين عنهما في قصائدهم، وصف الشاعر العباسي دعبل الخزاعي مشاعره تجاه الشباب والشيب، وكل ذلك جاء في سياق مدحه وذمه لهما.

منهج البحث: اعتمد البحث على المنهج التحليلي في تحليل النصوص الشعرية.

أسئلة البحث: ما أسباب تجليات الشباب والشيب في شعره وتكراره فيه؟ وما موقفه من كل مرحلة ومدى إحساسه بهما؟ وإلى أى مدى استطاع توظيف الأساليب الشعرية المختلفة للكشف عن مشاعره وأفكاره؟

مشاكل البحث: هل كان توظيف الشاعر لمفهومي الشباب والشيب تقليداً اتبعه الشاعر في هذا العصر، أم كان مزيجاً من التقليد والتعبير عن تجارب حياتية؟ فيم يختلف تصوير الشاعر للشيب عن تصويره للشباب؟ هل أثر الشيب على نظرته للمرأة، أو جاء بالعكس؟

مفهوم الشباب والشيب:

الشباب يدل على النمو والقوة، والحياة المتجددة، فهو مصطلح يطلق على مرحلة عمرية تلي مرحلة المراهقة، فتبدأ هذه المرحلة بالبلوغ كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}[١]. فبداية الشباب بلوغ الإنسان حتى سن الأربعين، و"الفَتاءُ والحَداثةُ...والاسم الشَّبيبةُ، هو خلاف الشَّيب".[٢] أمَّا فيما يخص الشيب، فهو مرحلة تحول في حياة كل إنسان، وتأتي بعد مرحلة الشباب، ومن علاماته الظاهرة تغير لون الشعر إلى الرمادي، ثم إلى الأبيض، ذكر الأصمعي ذلك بقوله:- "الشيب بياض الشعر والمشيب دخول الرجل في حدّ الشيب من الرجال، والأشيب المبيض الرأس وجمعه شِيب"[٣]، والأصل في شيب الإنسان يرجع إلى التقدم في العمر، وقد يرجع في مرحلة مبكرة من حياته إلى التوتر النفسي وحوادث الدهر. يمر الإنسان بمرحلتين عمريتين في حياته، واحدة تسبق الأخرى، وكل مرحلة تحمل خصائص مختلفة ومتغيرة على المستويين الداخلي والخارجي.

نبذة عن حياة الشاعر:

هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان من خزاعة[٤]. ولد سنة ١٤٨ للهجرة في الكوفة من أسرة عرف رجالها بالعلم، وقد كان له منزلة رفيعة في العلم، والأدب، والشعر، فقد كان شديد العناية بصياغة شعره، مستعملاً ألوان البديع، منتقياً الألفاظ والمعاني الدقيقة، وهو أحد مَن برعوا لعصره في علم الشعر ونقده، مما جعله يؤلف في أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء في

كتاباتهم[٥]. نشأ الشاعر نشأة غريبة غلب خيرها على شرها، وقد ساهمت ظروف وعوامل نفسية ووجدانية كتجاربه القاسية أو خيباته المتكررة؛ في وصوله لهذه الحالة؛ إذ جمع الشاعر في سلوكه بين النقيضين، الشطارة والصعلكة والعدوان على أرواح الناس وسب أعراضهم وهجائهم وبين التشيع لآل البيت وحبهم الأمر الذي كان ينبغي أن يؤدي إلى طريق الصلاح[٦]. فهو من جهة شاعر جريء يدافع عن أهل البيت ويقف ضد الظلم، ومن جهة أخرى لسانه حاد، قد يتجاوز حدود النقد والتشهير أو القسوة المفرطة. ومن المعروف أنَه قضى شبابه في الكوفة، وكان كثير السفر والترحال والتنقل من بيئة إلى أخرى فقد كان يخرج، فيغيب سنين يدور الدنيا كلها، وقد كان يصاحب الصعاليك، وكل ذلك كان بتأثير العامل السياسي والمطاردة من قبل السلطات العباسية، أو ربما كان بسبب حبه للسفر والتنقل وإنَ هذا السفر الكثير ساعده على التعرف على مناسبات كثيرة ومواقف جديدة ومختلفة في شبابه[٧]. ولطول عمر الشاعر أثر في أن يذكر أكثر المراحل العمرية التي مر بها في حياته ليعبر عن ذاته والآخرين ويرتبها ترتيباً، عاش النصف الأخير من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث، فعاصر الكثير من الخلفاء، العبّاسيين كالمنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكّل. كان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس، وقد هجا معظم هؤلاء الخلفاء[٨]. شعره كان مرآة صادقة عكست حياته فقد كان لخبراته وتجاربه دور في هذا، فكان يعي تماماً زمنه، عبر عن قلقه ومعاناته من الشيب في شعره، وتحسر من ذهاب شبابه، وكان له مشاعر متباينة تجاهه، انطلاقاً من رؤيته، وتجاربه الشخصية في الحياة، فضلاً عن البيئة التي عاش فيها، فكان للبيئة العباسية أثر كبير فيه، بحيث عكس هذا التأثير في نتاجه الأدبي. ذكر في شعره مراحل عمرية مثل: "العشر، والعشرين، والأربعين، والشيب، والمشيب، والشيخ، والعجوز"، فهو لم يذكرها كأرقام مجردة، بل كان يستخدمها كرموز لتجارب حياتية مرّ بها، وللتحولات النفسية والوجدانية التي عاشها، وقد تحمل دلالات إيجابية وسلبية حسب السياق الشعري.

المحور الأول: تجليات الشباب

مرحلة الشباب هي الفترة التي يشعر فيه الفرد بأنَّه قد حان وقت التخطيط لحياته، ومستقبله بما يمتلكه من طاقة وحيوية والتطلع للمستقبل، حيث يبدأ مرحلة التعلم والعمل وأخذ التجارب من الحياة، واتخاذ القرارات التي تعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع. ذكر دعبل الخزاعي ذهاب الشباب الذي عده أجمل مرحلة في حياته، فكان يتمنى أن يرجع إليها، في قصيدة رثاء، قوله[٩]:

فاذْهبْ كما ذَهَبَ الشَّـــبابُ فإنّه ... قد كانَ خيرَ مجاورٍ وعَشيرِ

واذْهبْ كما ذهبَ الوفـــاءُ، فإنّـه ... عَصَفَتْ به ريحاً صَباً ودَبُورِ

نلحظ أنَّ هذه المرثية فيه العاطفة وصدق الحرارة والوجدان، فالشاعر عبر عن ألمه وحزنه العميق لفقدان المرثي، فصدقُ العاطفة من أهم سمات شعر الرثاء؛ فله قصائد مؤثرة في رثاء آل البيت عليهم السلام. فقد كان موت المرثي موت الشباب كله، وهو خير جار وخير صديق، مؤكداً ما للشباب من حلاوة وجمال، فيمدحه ويتحسر عليه، فهو الوفاء نفسه، فبرحيله رحل الشباب والوفاء، إنَّه اليأس والحسرة، فالشباب الذي ذهب غير مردود. بدأ بفعل الأمر "أذهب" مكرراً إياه في بداية صدر البيتين، ليخاطب الشاعر نفسه أو الحاضرين أو مجهولاً، وليجلب انتباه المخاطب؛ إذ يتوجه بالخطاب إلى الضمير المستتر "أنت"، فصيغة فعل الأمر تتطلب مخاطباً فضلاً عن أنها أيسر وأخفُّ على اللسان وأسرع في حَمل المخاطب على الاستجابة(١٠). سيطر عليه حالة من الاضطراب، فكرر الشطرين الأول والثاني ليشبه به الشباب الذي ذهب من غير رجعة بالوفاء الذي ذهب من غير رجعة، ويعدد محاسنه، إنَّه الماضي المفقود؛ فهذا الفتى قد حَمل قيماً لم يعد لها مثيل. ذكر الخزاعي الشباب والشيب، من أرجوزة في مديح "المأمون"، وقد اختلط فيه موضوع الشيب بموضوع الشباب، قائلاً(١١):

جاءَ مَشيبي وَمَضى شَبابي

وَزالَ عَنّي أَهوَجُ التَصـــابي

فَلَم أَجُرْ عَن مَنهَجِ الصَوابِ

يرى الشاعر "الشباب، والمشيب" كظاهرتين متناقضتين في الحياة، إنه الإقرار بالواقع، فقد اجتاز مرحلة الدهشة والأسف، فهو يتحسر ويتألم من الشباب الذي مضى. اتكأ على عنصر التضاد في "جاء مشيبي، ومضى شبابي" للتعبير عنى مشاعره، وإشراك المتلقي في الحالة النفسية التي يعيشها. أقبل المشيب بكل ما تحمله من ألم وضعف بينما غادر الشباب بكل ما تحمله من قوة وطاقة وحيوية وطيش وحيوية، ما أسرع الزمان فقد مضى العمر بسرعة؛ فالشيب هذا الضيف الثقيل على قلبه. إنَّ المفارقة التي وردت في صورة التضاد تكمن في حالة التناقض الظاهر بين الشباب والشيب، فواحد يأتي بكل ما تحمله من أسى وألم، مع أنَّه أصبح أكثر هدوءاً واتزاناً، والآخر يمضي بكل ما كان فيه من لذة ومتعة وقوة، فقد اعتمد على التضاد لإبراز المفارقة بينهما، إنَّه الاستسلام للواقع، وقد حملت هذه الثنائية في طياتها العديد من الثنائيات منها الحضور والابتعاد أو الانتهاء الذي تمثل الشباب بالمشيب، الزمن يغير من حال إلى حال إنَّه الواقع المؤلم والحقيقة المرة، لابد من الوداع والحسرة على عمر الصبا، وهذا التشبث بالشباب، يعكس صورة التمسك بالحياة "فماضيه مجرد أيام تتوالى وسنين تنقضي، وإنَّما هي قدرة وممارسة وشروع ومحاولة لتحقيق ذلك الشروع" (١٢). كان في مرحلة الشباب، ثمَّ لا يلبث أن يدركه مرحلة

أخرى يتحول على إثرها شائباً، ولكن حلول الشيب هو الواقع المؤلم، وهو غير نادم اليوم لأنَّه صار أكثر نضجاً وحكمة.

غالباً ما كان يقرن الشاعر ذكر الشيب بذكر المرأة، قال في بكائه على رحيل الشباب الذي بشّره به ضحك الشيب برأسه، وأشعل في النفس نار الحنين[١٣]:

أَينَ الشـــــبَابُ؟ وَأَيَّةً سَلَـكا ... لا أَينَ يُطلَـبُ؟ ضَلَّ بَل هَلَكا

لا تَعجَبـي يا سَلمُ مِن رَجُلٍ ... ضَحِكَ المَشيبُ بِرأسِهِ فَبَكى

قَد كانَ يَضحَكُ فـي شَبيبَتِهِ ... فَأَتى المَشـيبُ فَقَلَّما ضَحـِكا

يا سلمَ ما بالشَّيـبِ منقصةُ ... لا ســــــــوقةً يُبــقي وَلاَ مَلِكا

كان يتشوق إلى تلك المرحلة الزاهية من حياته حيث تمتع بالحياة والسفر، فيشعر بالحنين إليها متمنياً عودته، ويشكو الشيب الذي بدأ يغزو رأسه وينقله إلى حياة أخرى مغايرة، ولكنَّه ليس له سوى الاستلام للواقع[١٤]. إنّ تفكيره بالشيب لم يفارق مخيلته، فقد بدأ بأسلوب الاستفهام "أين" في الصدر والعجز من البيت الأول متسائلاً ومتحسراً على الشباب متمنياً رجوعه، فقد كان أجمل مرحلة في حياته، وعن مكان الحصول عليه، "فهذا الاستفهام يرتبط برغبة خفية في مواجهة المستحيل تلك الرغبة التي تمثل جوهر المأساة" [١٥]. فقد مزج الشاعر بين الماضي والحاضر في "سلكا، ضحك، هلكا، بكى"، و" يطلب، يضحك، يبقي" فنسبة الفعل الماضي أكثر من المضارع؛ لإحساسه بالزمن الماضي أكثر؛ ولتجسيد هذه التناقضات زمانياً، ولإبراز التضاد بين الحالتين، بهدف إثراء النص، وإضفاء عمق ودقة في التصوير، إنَّه الصراع الداخلي من تقلبات الزمن. وظف أسلوب النداء "يا سلم" للدلالة على التعجب، مكرراً إياه مخاطباً حبيبته، ليلفت إنتباهها ذاكراً الشيب الذي غزا رأسه، وغير حاله من الضحك إلى البكاء، مبرراً إياه على إنَّه علامة من علامات الحكمة والنضج التي ولدتها التجارب، وليس عيباً، ويؤكد على أنَّه يدرك الجميع. نظرة التشاؤم من الشيب واضحة، فهذه الأبيات تحمل معنى جديداً لم يسبق إليه أحد قبل الخزاعي، وهي عبارة عن رؤية تأملية إزاء ما يعتري الإنسان من قوة ووهن، كما أنَّها وقفة على أطلال الشباب، كل ذلك في "مقطوعة تنم عن رقة متناهية واحساس شاعري رهيف، وتلاعب طريف بالمعاني، ومداعبة بديعة لصيغة القول، جمعت ألوان من الزينات اللفظية من جناس وطباق إلى نكت بيانية تمثلت في الاستعارات الحضرية التي تضمنته الأبيات، والتي لم ينجح في ابتكارها إلاّ عدد قليل من أمثال مسلم بن الوليد وأبي نواس".[١٦]

ذكر دعبل في شعره بعض المراحل العمرية التي مر بها، والتي تعرف بخصائصها المختلفة، إذ كان شعره يعبر عن رؤيته للحياة. لقد كان حديثه عن الشيب مقترنا بالحديث عن المرأة، قال في مدح الشيب وذم الشباب الذي عده اللهو واللذة والتمتع بالحياة، مخاطباً فيه المرأة، قوله[١٧]:

إنَّ المَشيبَ رِداءُ الحِـــــلمِ وَالأَدَبِ ... كَما الشَبـــــــــابُ رِداءُ اللَهـوِ وَاللَعِبِ

تَعَجَّبَت أَنْ رَأَتْ شَيبي فَقُلتُ لَـــــها ... لا تَعجَبي، مَن يَطُل عُـــمرٌ بِهِ يَشِبِ

شَيبُ الرِجـــــــالِ لَهُم زَينٌ وَمَكرُمَةٌ ... وَشَـــيـــبُكُنَّ لَكُنَّ الـــــــــعارُ فَاكتَئِبي

فينا لَكُنَّ – وَإِن شَيـــبٌ بَدا – أَرَبٌ ... وَلَيسَ فيكُنَّ – بَعدَ الشَيبِ – مِن أَرَبِ

في هذه الأبيات يعبر عن صراعه الداخلي مع نفسه القلقة في حوار معها في سبيل إقناعها، والذي أظهر صداه حواره مع المحبوبة التي صدته، عن طريق عقده مقارنة بين المشيب والشباب، ففيها يمدح الشيب ويثني عليه، ويعدد محاسنه، فيراه رداء الصبر والأدب، ورؤيته للشباب كونه رداء اللهو واللعب، ففي حواره السردي مع هذه المرأة ذاكراً "تعجبتْ" للدلالة على دهشتها واستغرابها من شيبه، ويخاطبها بأسلوب النهي"لا تعجبي" مندهشاً لِما التعجب فهذا الأمر واقع من طال عمره، إنَّه الواقع الذي لا نستطيع تغيره، كأنَّه يرقق قلبها ويلينها عليه، ويأتي ليقارن بين الشيب لدى الرجال والنساء وتأثيره على كليهما، فيرى الشيب لدى الرجال عنوان الوقار، وتاج الهيبة، أمَّا عند النساء فيراه عاراً يجلب الحزن والإكتئاب، فهو يفضل مظهر الشيب عند الرجال، ويقلل من شأن المرأة إذا شابت، فالحوار أظهر ما عليه نفسية كل من الحبيب والمحبوبة، هذا الحوار الذي كشف عن سر عذاب الشاعر بهذه التحولات التي طرأت على مظهره ممثلة في المشيب ودلالاته، والشيب وعلاماته؛ لذلك راح يؤكد لها أن تلك التحولات الجديدة لا تعني موت مشاعره أو فناء أحاسيسه " فقد تمتعت ما كفاني" ،"وريعي من اللهو والصبى مأنوس" إنه الواقع الذي لا مهرب منه، فإنَّ مبررات الشيب لا جدوى منه. اتكأ الشاعر على أسلوب التكرار التراكمي والاشتقاقي في:"مشيب، شباب، شيب، يشب"، فهذا التكرار يعبر عن انفعالاته النفسية تجاه الشيب، وقد منح هذا التكرار النص تناغماً وترابطاً وانسجاماً. وظف التضاد في: "المشيب، الشباب" و "مكرمة، العار" ولا شك في إنّ "هذا أسلوب جمالي شديد الإبهار والقدرة على التأثير في المتلقي لأنَّه يمثل طاقة تنبيهية تجعل المتلقي يعيد النظر في قضايا شديدة البساطة والعمق في الوقت نفسه"[١٨]. وقد لا نجده منصفاً في هذه المقارنة الذي عقده بين شيب الرجل وشيب المرأة بما تحمل من الحط من شأن المرأة، فصار لايعرف منها إلا المظهر الخارجي، وترك الجوهر الداخلي.

إنَّه الاستسلام للدهر، والابتعاد عن ملذات الشباب، قوله [١٩]:

كانَ يُنهى فَنَهى حينَ اِنتَهى وَاِنجَلَت عَنهُ غَياباتُ الصِّبا
خَلَعَ اللَهوَ، وَأَضحى مُسبِلاً لِلنُهى فَضلَ قَميصٍ وَرِدا
كَيفَ يَرجو البيضَ مَن أَوَّلُهُ في عُيونِ البيضِ شَيبٌ وَجَلا
كانَ كُحلاً لِمَآقيها، فَقَد صارَ بِالشَيبِ لِعَينيها قَذى

في البيت الأول يصور تلك المرحلة العمرية التي لم ينته عنها بإرادته، بل الزمن هو الذي أنهى عنه، مستعملاً الأفعال "ينهى، نهى، انتهى" للدلالة على الندم والتحسر، إنَّه التعبير عن تحول داخلي في شخصية الإنسان بعد أن مضت مرحلة الصبا، إنَّه الماضي المفقود، أما في البيت الثاني يعبر عن تركه اللهو تماماً، كما يخلع الثوب عنه، وفي البيت الثالث يستعمل أسلوب الاستفهام "كيف" ويتعجب من تفاؤل الإنسان بهذا البياض، ويحذر من الإنخداع بالمظاهر، لأن ما يبدو بياضاً نقياً في أوله قد يكون في حقيقته ينذر بالنهاية أو الزوال، مكرراً كلمة "البيض" التي تحمل دلالات فلسفية ورمزية، فالشيب غيرت نظرة المحبوبة إليه، وفرق بينه وبينها، فقد أصبح في عينيها كالقذى. يكرر الشاعر شكواه من الشيب الذي ينذر بزوال شبابه، وأثره في صد المعشوقة وجفائها مجسداً ذلك في صور حسية راقية خلال رؤى فنية جديدة؛ إذ شبه الشباب بالكحل والشيب بالقذى.[٢٠] كان الشعر وسيلة الشاعر للتعبير عن أفكاره ومشاعره وأحاسيسه، إذ ينقله للقارئ، ويشاركه تجربته الذاتية المثقلة، وهذه بلا شك تستند إلى خلفية فيها بالإضافة إلى المشاعر، مدركات وثقافة وتجارب واقعية وأفكار، في تجربته عقل مدرك وفيها كذلك خيال مبدع وعاطفة جيّاشة وتوتر من نوع ما، هذه الانفعالات هي الأبرز وهي العنوان[٢١].

جل الشعراء القدامى قد تأثروا بظاهرتي الشيب والشباب واختلفت مواقفهم ومشاعرهم إزاء هاتين الظاهرتين، وحسب المواقف التي تتطلب تغليب أحدهما على لآخر أو تساوي الكفين. كانت للمرأة حضور بارز في شعر دعبل، ففي أبيات له يشير إلى عمر المرأة من حيث الجمال والأنوثة، قوله[٢٢]:

مَطيّاتُ السُرُورِ فُويقَ عَشْرٍ إِلَى العِشرينَ، ثُمَّ قِفِ المَطايا
فانْ تزدَدْ لهـنَّ فزدْ قليلاً وبنتُ الأربعينَ من الرَّزايا

يرى الشاعر أنَّ أنسب عمر للمرأة من حيث البهجة والجمال هو بعد عمر العاشرة إلى العشرين، لأنه يرى أنَّها بعد هذا السن تفقد جمالها، فـ"بنت الأربعين من الرزايا" جمع رزية، وهي المشاكل والمعاناة!!. وقد لا نتفق مع الشاعر في نظرته هذه لأنَّ كثيراً من بنات الأربعين يعتبرنَّ فاتنان وجذابات. إنَّ عمر الأربعين هو العمر الوحيد الذي خصه القرآن بالذكر، فقد جاء في سورة الأحقاف قوله تعالى:{حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٢٣]؛ إذ إنَّ هذا العمر هو عمر النضج العقلي والجسدي للإنسان سواء أكان رجلاً أو أمرأة، ونهاية للنماء، وكان دعبل يراه عمر النضج والاستقرار والهدوء والحكمة، وقد ذكره في أكثر من موضع في شعره.

كان الشاعر يحب آل البيت عليهم السلام ويمدحهم، وقد اشتهر برثائه لهم، ففي هذه الأبيات يذكر ما أصابهم من مصائب، ممهداً لقصيدته بنسيب عجائزي، قوله:[٢٤]

تَأَسَّفَـت جارَتي لَمـــــا رَأَت زَوَري ... وَعَدَّتِ الحـلِمَ ذَنـــباً غَيرَ مُغتَفَرِ

تَرجو الصِبا بَعدَ ما شابَت ذَوائِبُها ... وَقَد جَرَت طَلَــقاً في حَلبَةِ الكِبَرِ

أَ جارَتي إِنَّ شَيبَ الرَأسِ نَفَّلَــني ... ذِكرَ الغَوانِ، وَأَرضاني مِنَ القَدَرِ

في البيت الأول ينقل شعور الأسف والندم لجارته عند رؤية حاله بعدما ابتعدت النساء عنه، وما أصابه من أذى، ذاكراً" تأسفت جارتي" وكان حلمه بالعودة إلى شبابه كذنب لا يغتفر، فهو يتمنى لو أنَّه لم يحلم بهذا الحلم بعدما أصابه من كبر وهرم. وظف أسلوب النداء بالهمزة في "أ جارتي" منادى للقريب على قلبه، ليخبرها إنَّ شيب الرأس جعله يفكر في قرب الموت، ويبتعد عن التفكير في الغواني، وتوبخها على تعلقها بالشباب بعد هذا العمر. وظف أسلوب التضاد في "الصبا، وشابت" لتوضيح الفكرة، وليظهر معاناته النفسية وقلقه واضطرابه، ومن انصراف الغواني عنه، بسبب تقدمه في العمر،لأنَّ النساء يبحثن عن الشباب والفتوة، كما هو حال الرجال، فذلك ما جعله يصب غضبه على المشيب، فنذير الشيب يؤذن بالأُفُول، ويؤثِّر في قوة المرء، ويحجبه عن نشاط الشباب. إنَّه غربته الزمانية، أي غربته في الزمن الحاضر المشيب، وحنينه إلى الزمن الماضي الشباب، لتكشف عن رؤيته لعنصر الزمان من خلال خبرته الذاتية[٢٥]. الشيب غير نظرة الشاعر إلى الحياة وإلى ما حوله، فقد فعل الشيب فعلته به؛ ليرجع إلى رشده، ويعلن استسلامه له. ويبكي على ما فاته. تصوير الشاعر لمعاناته الداخلية ذاكراً "ترجو الصبا" متحسراً على الشباب ومتأملاً عودته، ولكن أعراض الشيب قد ظهر، جاء الشيب مات الشباب فهو مفارقه بلا رجعة، فكان في لحظة ضعفه ويأسه يستسلم للشيب. إنَّه الواقع المؤلم، ليذكر" شابت"، و"شيب الرأس" للدلالة على ظهور علامات الكبر أو الشيخوخة عليه، نتيجة تقدمه في العمر أو نتيجة ما أصابه من الهموم والمشاكل الذي أثر عليه وترك آثاره فيه، يصف حاله ويشعر بالأسف من مرور وزوال الشباب، ومجيء الشيب.

قال في هجاء إبراهيم بن المهدي العباسي لما بويع بالخلافة الملقب بابن شكلة عم المأمون فقد كان مغني وموسيقار، ذاكراً في مطلعه حاله بعد مفارقة الشباب ومجيء الشيب[٢٦]:

علمٌ وَتَحكيمٌ وَشَيبُ مَــفارِقِ ... طَلَّــسْنَ رَيـعانَ الشـبَابِ الرائِقِ
وَإمارَةٌ فـــي دَولَــةٍ مَيــمونَةٍ ... كانَت عَلى اللَذّاتِ أَشغَبَ عائِقِ
فالآنَ لا اغدو ولستُ برائحٍ ... في كبر معشوقٍ وذلّة عاشق
نعرَ ابن شكلة بالعراق واهلهِ ... فهفا إليـــــه كلّ اطلس مائقِ

يقوم الشاعر في مطلع هذه القصيدة برثاء شبابه، ووصف حاله بعد الشيب الذي غطى نضارة شبابه، فهو التركيز على التباين بين الشباب والشيب، في موازنة طريفة بينهما، إنَّه مقارنة بين الماضي والحاضر. فقد كان موقف الشعراء من الشباب والشيب متباينة بين مدح وذم، فتنوعت نظرتهم لهما، فبدأ الشاعر في البيت الأول بمفارقة بين الشيب الذي أكسبه العلم والحكمة، والشباب الذي أزالت نضارة الشباب وصفاءه، هجا الشاعر الملقب بابن شُكلَة المرشح للخلافة بما عُرف به دعبل من ناقدٍ سياسي لاذع، مصوّراً وكأنَّ قدَر المسلمين أنْ تحكمهم سلالة من الفنانين.[٢٧]يصوره كشخص ينقصه علم وحكمة رغم شيبه، فاستعمل الهجاء لإظهار قلة عقله أو عدم قدرته على التفكير المنطقي بالرغم من بلوغه سن الشيب.

المحور الثاني: تجليات الشيب:

اختلفت رؤى الشعراء للشيب، بين السلب والإيجاب، فمنهم من رآه نذير الموت، ومنهم من رآه فرصة للتوبة كشعراء الزهد، وآخرون نظروا إليه كعلامة على الحكمة والخبرة والتجارب. كان دعبل الخزاعي يعي تماماً إنَّ الشيب نهاية اللهو واللعب، ولكنَّه بداية الحكمة والنضج والاستقرار، وصد المرأة عنه، لأنَّها تعشق الشباب. إنَّه التعبير عن التجارب التي عاشها الشاعر ومعاناته في هذه المرحلة، ففيه يتجلى صدق الشعور وقوة العاطفة. يرى الشاعر في هذه القصيدة أن الشيب سمة من سمات العفة، والحكمة[٢٨]:

أَهلاً وَسَهـلاً بِالمَشـــــيبِ فَإِنَّهُ ... سِمَةُ العَفيفِ وَحِليَةُ المُتَحـرِّجِ
وَكَأَنَّ شَيـــبي نَظـــمُ دُرٍّ زاهِرٍ ... في تاجِ ذي مُـلكٍ أَغَرَّ مُتَوَّجِ
ضيـف ألمَّ بمـــــــفرقي فَقَربــتُهُ ... رَفضَ الغوايةِ واقتِصادَ المَنهَجِ
لا شَيءَ أَحسَنُ مِن مَشيبٍ وافِدٍ ... بِالحِلمِ مُختَرِمِ الشَبابِ الأَهوَجِ

يرحب الشاعر بالمشيب ويفتخر به، ويمدح الشيب بالوقار والعفة، ويستقبله استقبالاً حاراً، فقد كان له رؤية مختلفة عن الشيب أسوة بالآخرين من أقرانه الشعراء، فقد رحب بالمشيب، وعامله كأنَّه إنسان، بقوله "أهلاً وسهلاً" إنَّه نظرة وقار وهيبة له. تصوير جميل له وتشبيهه بالدر في تاج صاحب ملك، إنَّ الشيب سمة من سمات العفة ومظهر من مظاهره، فهو يرسخ فيه قيماً عليا بحيث يرفعه بين المجتمع. عبر عن الشيب بمعنى طول الزمان والحنكة لأنَّه كان من المعمرين،

إذ يتميز بامتداد عمره وطول خبرته. كان الشاعر بارعاً في إنتقاء كلماته المناسبة للمعنى الذي يريد إيصاله، فقد عبر عن دواخله أصدق تعبير، فهو من الشعراء الذين هاجمهم الشيب مبكراً، ففي أبيات له يذكر صراحة المصاعب التي قد تعجل ظهور الشيب لديه، وغالباً ارتبط سياق استنكار الشيب عند الشاعر بذكر النساء قوله[٢٩]:

لَقَد عَجِبَت سَلمى وَذاكَ عَجيبُ رَأَت بِيَ شَيباً عَجَّلَتهُ خُطوبُ

وَما شَيَّبَتني كِبرَةٌ غَيرَ أَنَّني بِدَهرٍ بِهِ رَأسُ الفَطيمِ يَشيبُ

يخاطب "سلمى" التي ترتبط ذكراها بأيام الماضي الجميل الذي عاشه معها، والتي أبدتْ دهشتها، فيكرر "عجبتْ، عجيبُ" بالاسم والفعل ليؤكد على دهشته واستغرابه من استغراب حبيبته من شيب رأسه، وكأنَّ الشاعر قصد من وراء استعماله لفعل التعجب إثارة الحنين والعاطفة في قلب حبيبته. وفي البيت الثاني يبرر عجلة الشيب إلى معاناته في هذا السن المبكر، وما صادمه من مصاعب ونكبات وما غشاه من هموم وأحزان، فالدهر ونوائبه كان السبب وراء شيبه المبكر، فكان لقدوم الشيب في سن مبكرة من حياته أثر كبير عليه، فهذا الزمان حتى يشيب صغير السن بأهواله وأحزانه، وما الشيب إلا أثر من آثار الزمن، فالمشكلة التي يعيشها ليست مع ذلك الأثر وحسب، ولكنَّها مع الزمن الذي ترك فيه آثاراً كثيرة، ظاهرة وباطنة، وأمام سطوة الزمن وفاعليته، تبدأ قوى الشاعر بالانهيار التدريجي، فتتبدد لديه قدرته على المواجهة، وتتحول إلى استسلام لواقع جديد سيغير كثيراً من معالم حياته[٣٠]. فنوائب الدهر كانت السبب وراء ازدياد ملامح الشيب عليه، لا مجرد مرّ السنين، فقد ربط الشيب بالمعاناة النفسية والشدائد لا بالزمن وحده، فهو علامة الكبر، وخوض التجارب، وقلة الحظوة عند النساء، وغير مرحب لأنَّه قد يكون تذكير بفناء الشباب والدنيا.

يرى الشاعر إنَّ الوقار والزهد بعد الأربعين الحل الوحيد لنيل الآخرة برضى الله وبرضى النفس قوله ذاكراً عمر الأربعين[٣١]:

الجَهلُ بَعدَ الأَربَعينَ قَبيحُ فَزَعِ الفُؤادَ وَإِن ثَناهُ جُموحُ

وَبِعِ السَفاهَةَ بِالوَقارِ وَبِالنُهى ثَمَنٌ لَعَمرُكَ – إِن فعلتَ – رَبيحُ

ينصح بالتمسك بالوقار والتعقل ولا سيما بعد الأربعين، لأنَّه نهاية الشباب، ذكر الثعالبي: أنَّ الشباب جمع شاب، وهو بين الثلاثين والأربعين[٣٢]، فهذا الشيب المتمثل بالحكمة، ويذكر لفظ "الجهل" بعد الأربعين، ويصفه بـ"القبح، ويفزع القلب ويقلقه ولا يستطيع السيطرة عليه، وفي البيت الثاني استعمل فعل الأمر"بع" في معرض الإرشاد وتوعية المخاطب طالباً منه التخلص من السفه

واستبداله بالوقار والعقل، فهذا العمل هو ثمن لصالح عمره، ووظف الترادف "الجهل، والسفاهة" كلاهما له معنى الإفتقار إلى المعرفة والعلم، وذلك لتعزيز المعنى وتوكيده.

قال يفخر باليمن ويعدد مناقبهم، ويهجو النزاريّة، ويرد على الكميت بن يزيد (ت١٢٦هـ)، ويذكر آثار الدهر عليه مرة أخرى، وقد ربط حديثه عن الشيب بالمرأة، ذاكراً كذلك ما بعد عمر الأربعين(٣٣):

أَفيقي مِن مَلامِكِ يا ظَعينا	كَفاكِ الـــلـــوَمَ مَرُّ الأَربَعينا
أَلَم تَحزُنكِ أَحداثُ اللَيالي	يُشَيِّبنَ الذَوائِـــبَ وَالقُرونا
إِذا لَم تَتَّعِظْ بِالشَيبِ نَفسي	فَما تُغني عِظاتُ الواعِظينا
عَلى أَني وإِنْ وقَّرتُ شَيبي	أخافُ إذا لقيـــتُ الوامِـقينا

إنَّه الصراع بين الشاعر والدهر، الذي كان سبباً في كل هذا التغير، عندما يدرك الإنسان بالأخير إنَّ الوقت قد فات وهو في غفلة. يخاطب الشاعر تلك المرأة التي في الهودج بقوله "يا ظعينا" إنه الأقرار بالواقع المؤلم وهو مرور عمر الاربعين، الذي ينبه بقدوم الشيب وفناء الشباب. وظف صيغة فعل الأمر للتعبير عن معان عدة قصده قصداً، وذلك بتكراره للمفردة المخاطبة "أفيقي، كفاكِ" للتعبير عن الحسرة والألم، ليصف حاله من غدر الزمان وأحداثه الذي يشبنَ شعر الرأس، فيبكى على الشباب، ويصوِّر فيه المشيب الذي هو نذير الموت، ويشعر بالحزن والأسى لانحطاط القيم بين الناس، فالشيب هو الواعظ الذي أخذ به نفسه عملياً بواعظه، ويدعو إلى الاعتبار به، ويتابع قائلاً(٣٤):

وأهوى أنْ تخبَرني سُلـــيمى	وأُخبـــرَها بِـماُ كُنّا لقينا
أَحبُّ ذخيرةِ، وأَحـــبُّ عِلقٍ	إلىّ الغانياتُ وإنْ غَنينا
وكلُّ بكاءِ رَبعٍ أوَ مـشـــيبٍ	نُبكِّيه، فهُـنَّ بهِ عُنـــينا
أحِبُّ الشيبَ لما قيلَ: ضيفٌ	لحبِّي للُّضيوفِ النازلينا

نلاحظ أنَّ معظم الشعراء يبكون شبابهم، وكأنَّما نسمع أو نقرأ الندم فيما بين السطور والكلمات، وقد بكى الخزاعي الشباب كما يبكي الأحبة على حبهم، إنَّه الحسرة على أيام الشباب الذي انقضى بسرعة، فخطابه للمرأة "أن تخبرني، وأخبرها" يبين مدى علاقته بها وأهميتها بالنسبة له. مدح الشيب وأظهر حبه له، لأنَّه ضيف زائر مؤقت، ولكنَّه يواسي نفسه؛ لأنَّ هذا الضيف الثقيل الذى حل برأسه نزل رغماً عنه. هذا التناقض بين محاولة التظاهر باللامبالاة والواقع الذي يعيشه يظهر مدى صعوبة تقبل فكرة التقدم في العمر، وكرر "أحب" ثلاث مرات وذكر"أهوى" لإظهار حنينه ورغبته، والتأكيد على عمق حبه، فقد عبر عن مشاعره بصدق ووضوح.

يذم الشيب، ويذكر عبارات تُصَوِّر كراهيته له؛ إذ جعله مصيبة المصائب، ويعبر عن حزنه لأن تغيرت نظرة النساء إليه بسببه، قوله[٣٥]:

لَمّا رَأَت شَيباً يَلوحُ بِمَـفرِقي صَدَّتْ صُـــدودَ مُفارِقٍ مُتَجَمِّلِ

فَظَلِلتُ أَطلُبُ وَصلَها بِتَذَلُّلٍ وَالشَـــيبُ يَغـمِزُها بِأَن لّا تَفعَلي

لقد ترك قلقه من الشيب وخوفه منه هاجساً في نفسه، لذا تكرر حضوره في أكثر من موضع في شعره، لأنَّ الشيبَ أفقده القوة والحيوية بحيث صار ذليلاً يطلب الوصال وقد هجر مجلسه الخلان بسببه، فذكر "الشَيبُ يَغمِزُها بِأَلّا تَفعَلي"، واستعمل "صدتْ، وصدود" هذا رد فعل المرأة التي آلمَ إحساسه، قال (مالارميه): "إنّ الشعر لا ينبغي إذن أنْ يتشكل من كلمات، ولكن من أحاسيس، وكل الكلمات تمحى أمام الأحاسيس" [٣٦]. نسب الشاعر صفة "الغمز" إلى الشيب، في قوله مصوّراً صد الحبيبة عنه بسبب مشيب رأسه، كان تشخيص الشيب ينمّ عن خيال واسع من لدن الشاعر، ولاسيما إذا ما كان ذلك التشخيص بإضفاء فعل "الغمز" عليه للمرأة، وهذا تصوير جميل للشيب الذي يغمزها بأنْ لا تفعلي، في إشارة إلى عدم القبول في وصل الشاعر وعدم التعاطف معه، الأمر الذي ينقل لنا سعة مخيلة الشاعر من خلال تصوُّره أنّ الشيب يقف مع المرأة ضده، على الرغم من أنَّه السبب الأساس في ابتعادها وصدودها عنه، فضلاً عن أنّ تشخيص الشيب بهذا الفعل يدل – من جانب آخر – على يأس الشاعر من مواصلة النساء، وبذلك يقطع الأمل كليًّا منهنّ، ويرضى بالشيب رفيقاً بديلاً حتى الموت[٣٧]. إنَّ الشيب كان السبب وراء تغير نظرة المرأة إليه، بحيث أبتعدتْ عنه مما سبب له ألماً عاطفياً شديداً. كان شعره صورة صادقة لما عاشه في تلك المرحلة العمرية، بكل ما حملته من ألم.

قال يهجو ذاكراً الشيب[٣٨]:

يُلَوِّثُ لِحيَةً عَرُضَت وَطالَت ويَمرُثُها كَتَـــــمريثِ الخَميرَهْ

فَيا لَكِ لِحيَةً وَضَرى، وَشَيباً كَأَنَّكَ قَد أَكَلْتَ بِها مَضيرَهْ

نظم الشاعر في أكثر من غرض شعري، إلاّ أنَّ أغلب شعره كان في مدح آل البيت "عليهم السلام" وقد كان شعره فيهم صادقاً مفعماً بالحرارة والوجدان، أمَّا فيما يخص الهجاء، "ففيه يحس قارئه وكأنَّه يقرأ لشاعر خلق لكي يقول الهجاء، إنَّه لا يتعثر ولا يتعسف المعاني رغم خبثها، ولكنَها تأتيه وكأنها فيض قريحته وعفو خاطره، يحسن الصوغ ويتقن توليد المعاني، ويمتع ويطرف مع الإيجاع إلى الحد الذي يجعل المهجو يطرب حين يسمع شعراً لنفس الشاعر يهجو به فريسة أخرى" [٣٩]. في هذه الأبيات يصف الشيب بطريقة مهينة و ساخرة مع طول اللحية الذي عده سمة من سمات الحمقى، ويصور وساخة لحيته كأنَّه قد تناول بها طعاماً يسمى المضيرة، فقد

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ٩

كان بعض العرب يمسحون الأيدي بعد الأكل باللحى. استعمل الشاعر الكلمات مثل:"يلوث، يمرث، لحية، مضيرة، خميرة ،وضرى، وشيبا" لرسم صورة كاريكاتورية ساخرة للمهجو. ذكر ابن الجوزي في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين": "إنَّ إطالة اللحية من سمات الحمقى واستدل بأقوال كثير من التابعين والعلماء"[٤٠]، وقد يكون قصدهم بذلك هو الطول الفاحش، ولا يلزم من هذا أن كل من طالت لحيته أحمق، هكذا كانت نظرتهم إلى اللحية في ذلك الوقت. رسم الشاعر هذه الصورة الساخرة للمهجو؛ لإبراز جوانب معينة يراه غير مرغوب فيه.

اشتهر دعبل الخزاعي بهجاء الخلفاء العباسيين والولاة وانتقادهم، في قصيدة يهجو الخليفة المعتصم، لأنه كان يكره لطول لسانه، قائلاً فيه[٤١]:

كَأَنَّكَ إذ مُلّكتَنا لِشقائِنا ... عَجوزٌ عَلَيها التاجُ وَالعِقدُ وَالإِتبُ

لَقَد ضاعَ ملكُ الناسِ إذ ساسَ مُلكَهُم ... وَصَيفٌ وَأَشناسٌ وَقَدْ عَظُمَ الكَربُ

استعمل الشاعر في بداية صدر البيت الأول "كأنك" التي تفيد التشبيه، مع "إذ" ظرف الزمان للماضي، موجه خطابه للخليفة المعتصم، بانَّ سلطانه كان سبباً في تعاستهم، وهو كعجوز تحاول أن تخفي قبحها بالزينة، وفي البيت الثاني، يعبر عن سوء حال الرعية بعدما تولى الخليفة الحكم، فقد جلب الشقاء لهم، وقد ذكر لفظ "العجوز" وتعني " المرأة الكَبيرة، ولا تقل عَجُوزة، والعامة تقوله، والجمع عجائز، وعُجُز"[٤٢]. للسخرية منه، وللتقليل من شأنه وهيبته، وللإشارة إلى شخصيته الضعيفة وعدم أهليته للخلافة، وذكر "ملكتنا، ملك، ملكهم"، لتأكيد المعنى، وتوجيه انتباه المتلقي إليه. فقد كان شعره وسيلة لنقد الطبقة الحاكمة والمفسدة، فهو معروف بمعارضته وهجائه للسلطة الحاكمة في العصر العباسي، ليعلن رفضه واحتجاجه على ضياع أمر الناس.

إنَّه الناقد السياسي، فقد كان شعره سلاحاً ضد الظالمين والمفسدين، وقد اعتد بشجاعته وإقدامه وتحديه للسلطة، قائلاً: "لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك"[٤٣]. فهو يتحدى الجميع بكلمته، ويعرض نفسه للموت، فقد كان يعلم بأنَّ شعره في السلطات العباسية قد يؤدي إلى موته، إلا أنَّه استمر في هجائهم ونقدهم.

في أبيات له يمدح أبا دُلف العجلي، ذاكراً لفظ الشيخ "شاخ الرجلُ يَشيخُ شيخوخةً وشيخا" [٤٤]، قوله[٤٥]:

اللَهُ أَجرَى مِنَ الأَرزاقِ أَكثَرَها ... عَلى يَدَيكَ بِخَيرٍ يا أَبا دُلَفِ

أَعطى أبو دُلفٍ، والرِّيحُ عاصفةٌ ... حَتَّى إذا وقَفتْ أعطَى ولم يَقفِ

ما يَصنَعُ الشَّيخُ بالعَذراءِ يملكُها ... كَجوزَةٍ بينَ فَكَّي أدْرَدٍ خَرِفِ

إنْ رامَ يكْسِرُها بالسِنِّ تَثْلِمُهُ ... وَكسْرُها راحَةٌ لِلهائمِ الدِّنِفِ

يقوم في البيتين الأول والثاني بمدح أبي دلف وهو أحد القادة في العصر العباسي، بأنَّ الله اختاره ليكون وسيلة للخير والعطاء، فهو كريم في كل الأوقات، فعطائه دائم ومستمر، في مدح مبالغ فيه؛ أمَّا في البيتين الثاني والثالث يصف شيخوخته وما تركه فيه من آثار الضعف والتجاعيد. فقد رفض الشاعر هدية أبا دلف والتي هي جارية عذراء؛ لأنَّه غير قادر على مغازلتها، لعجزه وضعفه الجسمي، بقوله:"ما يصنع الشيخ بالعذراء"، فإنَّ "الشيوخ يرون الحاضر ظلاً ثقيلاً عن حياتهم، فهو مقترن بعجزهم عن السعي وراء الرزق أو الحرب أو الحب"[٤٦]. فقد أعطى الشاعر لشيبه حقه؛ فلم يقلد الشباب في تصرفاتهم مما يظهره بشكل أخرق.

نظر للشيب كرمز للحكمة التي أتتْ مع التجربة ونضجت مع السنين، وهو ما يعطيه انطلاقة جديدة لصياغة رؤيته للحياة من منظور أعمق، وقد وظفه في موضوع الرثاء، والهجاء، والحكمة، والمدح.

الخاتمة:

• أحدث الشيب التحولات الكبيرة في حياة الشاعر، إذ تغيرت نظرته إليه بتغير حالاته الوجدانية، فتارة يرى فيه كعلامة على الحكمة والخبرة، وتارة يبرر عجلة شيبه لمعاناته الكثيرة من أثر الزمان وأهواله، ومصائبه، وذلك بسبب صد المرأة عنه. فقد ارتبط حديثه عن الشيب بذكر المرأة في مواضع كثيرة من شعره، ذاكراً "سلمى، جارتي، سلم، ظعينا، سليمى".

• كان الشاعر واعياً تماماً في إنتقائه لألفاظه ذات الدلالة القوية في شعره، فكل ذلك كان لإبراز المعاني المراد توصيلها للمتلقي بطريقة مؤثرة، فعندما كان يهجو الخلفاء وأعوانهم، كان يستعمل بعض الألفاظ مثل: "الشيب"، و "العجوز" وذلك لإظهار عجزهم وضعفهم، ويقصد عدم قدرتهم على حكم الناس والحط من أقدارهم.

• إنَّ الجانب الذي قمنا بتحليله في شعره كشف عن أبعاد عميقة من ضعفه وعجزه وحسرته؛ إذ كان ينقل ما كان يشعر به في شيبه متذكراً شبابه، فقد كان يبث شكواه من مجيء الشيب، وذهاب الشباب مستسلماً نفسه للواقع المرير الذي لا يتغير وهو حلول الشيب، فحياته وشعره يكشفان عن نفس قلقة حزينة متمردة.

• ربط الشاعر الشباب باللهو واللعب، وربط الشيب بالحكمة والنضج، وفضله على الشباب، فقد كان لشيبه الفضل الكبير بالاتعاظ والاعتبار بعد عمر الأربعين ذاكراً في مواضع كثيرة من شعره تركه للهو واللعب.

• نلحظ تناقضاً في رؤية الشاعر للشيب عند الرجل والمرأة، فقد مدح شيب الرجل، وذم شيب المرأة، ورأى فيها عاراً يجلب الحزن والاكتئاب.

الهوامش

١- النور: ٥٩.

٢- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة – مصر، د.ت.:٢١٨٠.

٣- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٦٧م: ٣٥٢، والمفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت.: ٢٧٠.

٤- الأغاني، أبو فرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السّعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، ط٣، ٢٠٠٨م: ٢٠/ ٥٩.

٥- ديوان دعبل بن علي بن رزين ين سليمان الخزاعي، شرحه: حسن حمد، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٤م: ١١، و تأريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، ط١٦، د.ت.: ٣٢٣- ٣٢٤.

٦- ينظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي، د.مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٥، ١٩٨٠م: ٣٢٢.

٧- ينظر: التحليل النفسي لشخصية دعبل الخزاعي من خلال حياته وأشعاره، عارف داودي، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد٥٣، الجزء٢، ١٩٩٧م: ٣٤٤.

٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن بكر بن خلكان (ت٦٨١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت – لبنان، ١٩٧٧م: ٢/ ٢٦٦، والأغاني، الأصفهاني: ٢٠/ ٦٠ – ٧٠.

٩- ديوانه: ١٦٢.

١٠- لغة الشعر عند الجواهري، أ.د. علي ناصر غالب، مكتبة عين الجامعة "اللغة العربية، ٢٠٢٥م: ٤٨.

١١- ديوانه: ٣٣.

١٢- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة – مصر، د.ت.: ١١١.

١٣- ديوانه: ١٠٦.

١٤- ينظر: ثنائية الشباب والمشيب والموقف من الزمن: قراءة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، فتيحة دخموش، مجلة منتدى الاستاذ، العدد ١٠، سبتمر ٢٠١١م: ١٥٨.

١٥- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف: ١٠٩.

١٦- الشعر والشعراء في العصر العباسي، الشكعة: ٣٣٦.

١٧- ديوانه: ١٥١.

١٨- اللغة والشكل، أمجد ريان، مركز الحضارة العربية، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٩م: ٦١.

١٩_ ديوانه: ٢١.

٢٠- دراسات في النص الشعري العباسي، د. أحمد علي الفلاحي، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، عمان – الأردن، ٢٠١٣م: ١٠٧.

٢١- في الأدب الفلسفي، د.محمد شفيق شيّا، مؤسسة نوفل، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٠م: ٨٤.
٢٢- ديوانه: ١٧٧.
٢٣- الأحقاف: ١٥.
٢٤- ديوانه: ٢٣.
٢٥- الزمن في الأدب، ميرهوف، هانز، ترجمة أسعد زروق، مراجعة العوضي الوكيل ، مؤسسة سجل العرب – القاهرة، ١٩٧٢م: ٧.
٢٦- ديوانه: ١٠٤.
٢٧- الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي، مجلة المنهاج، علي الباهدلي، العدد٨، ١٩٩٧م: ٢٤٢.
٢٨- ديوانه: ٥٤.
٢٩- ديوانه: ٢٩.
٣٠- الرؤى والأدوات عند شعراء القرن الثاني الهجري، د. صلاح الدين أحمد دراوشة، عالم الكتب الحديث ،إربد – الأردن، ط١، ٢٠١٠م: ٣١٥.
٣١- ديوانه: ٥٧.
٣٢- ينظر: فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: د. يحيى مراد، مؤسسة المختار، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠٠٩م: ٨٨.
٣٣- ديوانه: ١٣٠ -١٣١.
٣٤- ديوانه: ١٣١.
٣٥- ديوانه: ٠١٦٩.
٣٦- اللغة العليا، النظرية الشعرية، جون كوين، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور أحمد درويش، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط٢، ١٩٩٩: ١٥٢.
٣٧ – ينظر: الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية قرن الرابع الهجري، ثائر سمير حسن الشمري، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط١، ٢٠١٤م: ١٤٧.
٣٨- ديوانه: ٧٣.
٣٩- الشعر والشعراء في العصر العباسي، الشكعة: ٣٣١.
٤٠-أخبار الحمقى والمغفلين، جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن أبو الفرج بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧م: ٢٨.
٤١- ديوانه: ٢٧.
٤٢- المختار من صحاح اللغة، محمد محيي الدين عبد الحميد، محمد عبد اللطيف السبكي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة- مصر، ط٤، د.ت.: ٣٢٨.
٤٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢/ ٢٦٦.
٤٤- المختار من صحاح اللغة: ٢٧٨.
٤٥- ديوانه: ١٦٦.
٤٦- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الرشيد، بغداد – العراق، ١٩٨٢م: ٢٤٩.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- أخبار الحمقى والمغفلين، جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن أبو الفرج بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧م.

٢- الأغاني، أبو فرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السّعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، ط٣، ٢٠٠٨م.

٣- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة – مصر، د.ت.

٤- تأريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، ط١٦، د.ت

٥- التحليل النفسي لشخصية دعبل الخزاعي من خلال حياته وأشعاره، عارف داودي، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد٥٣، الجزء٢، ١٩٩٧م.

٦- ثنائية الشباب والمشيب والموقف من الزمن: قراءة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، ١فتيحة دخموش، مجلة منتدى الاستاذ، العدد ١٠، سبتمر ٢٠١١م.

٧- دراسات في النص الشعري العباسي، د. أحمد علي الفلاحي، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، عمان – الأردن، ٢٠١٣م.

٨- ديوان دعبل بن علي بن رزين ين سليمان الخزاعي، شرحه: حسن حمد، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٤م.

٩- الرؤى والأدوات عند شعراء القرن الثاني الهجري، د. صلاح الدين أحمد دراوشة، عالم الكتب الحديث ،إربد – الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

١٠ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الرشيد، بغداد – العراق، ١٩٨٢م.

١١- الزمن في الأدب، ميرهوف، هانز، ترجمة أسعد زروق، مراجعة العوضي الوكيل ، مؤسسة سجل العرب – القاهرة، ١٩٧٢م.

١٢- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د.مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٥، ١٩٨٠م.

١٣- الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية قرن الرابع الهجري، ثائر سمير حسن الشمري، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط١، ٢٠١٤م.

١٤- في الأدب الفلسفي، د.محمد شفيق شيّا، مؤسسة نوفل، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٠م.

١٥- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة – مصر، د.ت.

١٦- لغة الشعر عند الجواهري، أ.د. علي ناصر غالب، مكتبة عين الجامعة "اللغة العربية، ٢٠٢٥م.

١٧- اللغة العليا، النظرية الشعرية، جون كوين، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور أحمد درويش، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط٢، ١٩٩٩.

١٨- اللغة والشكل، أمجد ريان، مركز الحضارة العربية، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٩م.

١٩- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٦٧م.

٢٠- المختار من صحاح اللغة، محمد محيي الدين عبد الحميد، محمد عبد اللطيف السبكي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة- مصر، ط٤، د.ت.

٢١- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت.

٢٢- الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي، علي الباهلي، مجلة المنهاج، العدد٨، ١٩٩٧م.

٢٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت – لبنان، ١٩٧٧م.

References

*The Holy Quran

١- Al-Aghani, Abu Faraj Ali ibn al-Husayn al-Isfahani (d. 356 AH), edited by Dr. Ibrahim al-Sa'afin and Bakr Abbas, Dar Sadir, Beirut, Lebanon, 3rd ed., 2008.

٢ -Al-Mufradat fi Gharib al-Quran, al-Husayn ibn Muhammad ibn al-Mufaddal al-Raghib al-Isfahani (d. 502 AH), edited by Muhammad Sayyid Kilani, Dar al-Ma'rifah, Beirut, Lebanon, n.d.

٣- Deaths of Notables and News of the Sons of the Time, Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim ibn Abi Bakr ibn Khallikan (d. 681 AH), edited by Ihsan Abbas, Dar Sadir, Beirut, Lebanon, 1977.

٤ -Gray Hair in Abbasid Poetry until the End of the Fourth Century AH, by Thaer Samir Hassan Al-Shammari, Safaa Publishing and Distribution House, Amman, Jordan, 1st ed., 2014.

٥- In Philosophical Literature, Dr. Muhammad Shafiq Shiya, Nawfal Foundation, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1980.

٦-Language and Form, Amjad Rayyan, Center for Arab Civilization, Cairo, Egypt, 1st ed., 1999.

٧ -Lisan al-Arab, Abu al-Fadl Muhammad ibn Makram ibn Ali, Ibn Manzur (d. 711 AH), edited by Abdullah Ali al-Kabir, Muhammad Ahmad Hasab Allah, and Hashim Muhammad al-Shadhili, Dar al-Maaref, Cairo, Egypt, n.d.

٨ -Man and Time in Pre-Islamic Poetry, Hosni Abdel Jalil Youssef, Egyptian Renaissance Library, Cairo, Egypt, n.d.

٩-Mukhtar al-Sihah, Muhammad ibn Abi Bakr ibn Abd al-Qadir al-Razi (d. 666 AH), Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1967.

١٠- News of Fools and Idiots, Jamal al-Din Abd al-Rahman ibn Abi al-Hasan Abu al-Faraj ibn al-Jawzi (d. 597 AH), Hindawi Foundation, United Kingdom, 2017.

١١-Poetry and Poets in the Abbasid Era, by Dr. Mustafa Al-Shakaa, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, Lebanon, 5th ed., 1980.

١٢ -Political Satire in the Poetry of Da'bal al-Khuza'i, Ali al-Bahli, Al-Minhaj Magazine, Issue 8, 1997.

١٣ -Psychological Analysis of the Personality of Du'bal Al-Khuza'i Through His Life and Poetry, Arif Daoudi, Islamic University College Journal, Issue 53, Part 2, 1997.

١٤-Selections from the Authentic Words of the Language, Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, Muhammad Abd al-Latif al-Subki, Al-Istiqamah Press, Cairo, Egypt, 4th ed., n.d.

١٥ -Studies in Abbasid Poetic Texts, Dr. Ahmed Ali al-Falahi, 1st ed., Ghaidaa Publishing and Distribution House, 1st ed., Amman, Jordan, 2013.

١٦-The Diwan of Da'bal ibn Ali ibn Razin ibn Sulayman al-Khuza'i, annotated by Hassan Hamad, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1994

١٧ -The Duality of Youth and Graying and the Attitude to Time: A Reading of the Poetry of Ibn Khafajah al-Andalusi, Fatiha Dakhmoush, Al-Ustadh Forum Magazine, Issue 10, September 2011.

١٨-The Higher Language, Poetic Theory, John Quinn, translated, introduced, and commented on by Dr. Ahmed Darwish, printed by the General Authority for Amiri Printing Presses, 2nd ed., 1999.

١٩- Visions and Tools of the Poets of the Second Century AH, Dr. Salah al-Din Ahmad Darawsheh, The Modern World of Books, Irbid, Jordan, 1st ed., 2010.

٢٠-The History of Arabic Literature in the Early Abbasid Era, Dr. Shawqi Dayf, Dar al-Ma'arif, Egypt, 16th ed., n.d.

٢١ -The Language of Poetry in al-Jawahiri, Prof. Dr. Ali Nasser Ghaleb, Ain al-Jami'ah Library, Arabic Language, 2025.

٢٢ -Time in the Eyes of Pre-Islamic Arab Poets, Abdul-Ilah Al-Sayegh, Dar Al-Rashid, Baghdad, Iraq, 1982.

٢٣-Time in Literature, by Hans Meyerhof, translated by Asaad Zarrouk, reviewed by Al-Awadhi Al-Wakil, Arab Record Foundation, Cairo, 1972.